

وجهٌ بهالةٍ ذهبيةٍ ، و قلبٌ عاصفٌ .. قراءة في ديوان ظمأ أزرق ، لحوراء
الهميلي ..

اللغة العليا :

1-حكمة الشيخ .

تلاشيتُ ضوءاً

في الفضاءات يسبحُ

هيولى من اللاغر السديمي أنصحُ

كثافةٌ قلبي

بانفجار عواطفي تفلُّ !

كما كونُ من الصعبِ يُشرحُ

على قدرٍ ما يخفيه ، أُخفي مشاعري

و بالرغمِ منِّي

(فوق أفقيّ)

تَسفحُ

أسافرُ نحوَ (اللازمان)

يحدُّني من الضوء ما يُعمي

و بالكاد يُلمحُ

أرى في انعكاسِ الضوء ذاتي تجسّدت

لأنّ فضاء الـ للروحِ مسرحُ !

تتدرّج العوالم ، من الهيولانية إلى المجرّدة الصّرفة .. في الشيء ذاته ..

للشيء ذاته وُجهتان ، ثابتٌ و متحرّكٌ ، موجةٌ و جُسيم ، جسدٌ و نفس .. ظاهرٌ و باطن .. بحسب

انتبازك لزاوية المشهد . و لعلّ أحدَ أشدّ الأسئلة الفلسفية ضراوةً هو ذاك الباحث عن جدوى اللغة ،

و موضعها بين أشياء العالم كلّهُ .. فمن قائلٍ إلى أنّها كل شيء ، و لا وجود خارج اللّغة ، إلى قائل بعجزها ، و آخرٍ يُحيّدُها تحييداً كاملاً خارج إطار المنظومة العقليّة بكونها أداة السفسطة المثلّى ..

هنا ، يتساءل الواقف على هذا المشهد التكعيبي ، أيّة قطعة هي تلك المفقودة في كلّ هذه المحاولات لتوصيف الوظيفيّة الحقيقيّة للّغة .. أو حتّى تعريفها على الأقلّ .

للخروج من هذا المأزق ، يتوجّب على الرّائي تصنيف موضوعاته ، فثمة في هذا العالم ما هو قابل للتصنيف و التعريف ، كونه قابلاً لاتّخاذ شكلٍ و طابعٍ مادّي . فهذه سيّارة ، و هذه شجرة ، و تلك قبّة .. لكن ماذا عن تلك الخارجة عن سلطان المادّة ، كتلك التي تشكّل ثلاثيّة السؤال الوجوديّ القديم .. ا ، العالم ، و الإنسان ؟

إن كان التعبير لغويّاً عن المادّيات ، و الرّتم اليوميّ لحياة الإنسان الأرضيّة سهلاً ، كونه يُعنى بشكل واضحٍ من تمثّلات الحياة (و أعني بالواضح ، ما يمكن رصده بحواس الإنسان الخمس) .. فماذا عن تلك المتعلّية المرتبطة بالسؤال الوجوديّ القديم ؟

يغيب عن كثير ممّن حاول طرق باب اللّغة هذا ، عامل مهم مرتبط بطبيعة اللّغة و ظهوراتها . و هو العروة الوثقى بين اللّغة نفسها و محلّ و عيّها الأكبر ، أي الإنسان .. و هذا العامل الغائب دوماً عن الأذهان رغم شدّة سطوته و اتّساع سلطانه .. هو الزّمن ..

يكبر السّؤال الوجوديّ باتّساع و عي صاحبه ، و هنا يلجأ لا محالة للغة عُلّيا ذات هامش تأويليّ كبير لتسع كلّ تلك التساؤلات الكبيرة حول ا ، و العالم ، و موضع الإنسان في هذه الثلاثيّة باعتبارها الوعاء الأكثر حضوراً لما تحمله هذه الثلاثيّة من أفكار ، و باعتباره (من زاوية أخرى ، لا تتضادّ مع الزوايا الأكثر شيوعاً) غاية الوُجهة المعرفيّة ، كما جاء في الأثر (كُنْتَ كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف) .. كتفسيرٍ لخلق الإنسان . و ببلوغ الوعي هذا الطّور من التساؤل ، و هو طورٌ كبيرٌ عُمراً و حجماً .. إذ كان و لا يزال مصاحباً العقل البشريّ منذ فجر التّاريخ ، رغم تعاقب التيارات الفكريّة بشقّيّها القداسيّ و الفلسفيّ عبر الزمان و إسهاماتها على طريق الإجابة . أقول ، بأنّه إذاً ، و لهذه الإعتبارات ، يمكن النظر إليه بعين الكهل الحكيم .. صاحب اللّغة العُلّيا ، و الهالة الذهبيّة .. أمّا الملفت في تجربتي مع هذا الديوان ، فتتمثّل بأن صاحب هذه اللّغة العُلّيا .. امرأة من الإحساء .. بعدما اعتاد المتابع لمؤشّر المستوى اللّغوي كلّما بلغت لغة ما هامشاً

تأويلياً متّسعاً متّخذةً شكلَ العارف الحكيم على الرّجال ، فهذا بوذا ، و ابن عربي ، و الخيّام و المعرّي و نيتشة و هيدجر ..

كسرَت حوراء هذه القاعدة ..

و لمّا ارتكزت نصوص الفصل الأوّل من الديوان على ثلاثية السؤال الوجوديّ ، أطلقت عليه اسم (تأويل على وجه المرايا) .. و راحت تنقش رؤياها الكونيّة على جذع نخلة .

فترى الإنسان تارةً مرآة التّجلي الكبرى للحقيقة الواحدة كما في النّص الذي قدّمت فيه هذه القراءة ، و تارةً لا تراه سوى رهانٍ في كفّ القدر :

على أيّ شيءٍ في الحياةِ

رهاني؟؟

فلا الروحُ مُلكي

لا الزّمانُ زمني !

كأنّي

على لوحِ المقاديرِ

فكرةٌ

يقلّبها نردٌ

لبضعِ ثواني

فأعلنتُ عصياني عليه

و حينما تمرّدتُ

من أقصى الغيوب

رمني ..

*

على عكس الطور السالف المعنيّ بالفهم العميق لطبيعة العلاقة بين العناوين الثلاث للسؤال الوجوديّ حيث الحكمة المكتسبة نتيجة الخبرة و المران الروحيّين ، يأتي الطور الاجتماعيّ اليوميّ لحياة الانسان ، بيد أن من يحسب هذا الطور منفصلاً نقيضاً مغايراً لطور الشّيوخ مخطئٌ لا محالة . إذ يرتبط هذا الطور بذاك في علاقة دائرية ، حيث يكون منه و إليه على طريقة التيّار الكهربيّ في العُقدة و المحوّل .. فهو و إن اختلفت طبيعته عن الأول ، إلّا أنه بوابة عبور السالك إليه من جهةٍ ، كما أنّه مطبخُ تراكم الخبرات و التجارب من جهةٍ أخرى ، حيث تتشكّل حكمة الشيخ فيما يلي من الزمن ..

الحب قيمة ، إذا ما تم تناوله على طريقة المنهج الأفلاطونيّ ، فهو ضرب عاطفيّ تتأثّر منه لائحة منظومة قيمٍ أخلاقيّةٍ طويلة . و هو العجلة الثلاثيّة المتّجة بصاحبها نحو الكمال ..

فإن كان السؤال الوجوديّ قائماً على ثلاثيّة (ا ، العالم ، و الإنسان) فتجوز إذ ذاك رؤية ذات الثلاثية من بُعدٍ آخرٍ ، فهذه العناصر المكوّنة للثلاثيّة شئنا أم أبينا هي ما بين عارفٍ و معروفٍ و معرفة .. هذا إذا تم النظر إلى الثلاثية من زاوية علاقة عناصرها الثلاث ..

الأمر نفسه ينسحب على الحب ، العجلة ذات العناصر الثلاث حيث لا يستوي بغيابها .. فهي ثلاثيّة أخرى بين حُبٍّ ، و مُحبٍّ و محبوب .. تكون فيه الفضيلة الكبرى للمُحب . كما يرى أفلاطون في مآدبته الخالدة حينما أدرج قصة البطلين الأسطوريين أخيل و باتروكلوس (ابن عمّه الذي أحبه) حيث يقود مَقتل باتروكلوس على يد هيكتور الطرواديّ أخيلَ إلى طلب الثأر مضحياً بحياته بإرادة حرّةٍ و فاءً لابن عمّه باتروكلوس .. هو الذي كان يعدّ نفسه لترك ساحة القتال و العودة إلى طمأنينة الديار ..

الأمر نفسه نجده في النصّ الملحميّ المعروف (جلجاميش) ..
فجلجاميش الذي تصفه بداية الألواح بأنه :

لم يترك ابناً لأبيه

و لم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار

و لم يترك عذراءَ لحبيبها و لا ابنة المقاتل و لا خطيبة البطل

تقرر الآلهة تأديبه ، فيتقاطع طريقه بطريق شبيه له يدعى أنكيدو ، يملأ عقله و قلبه حبّاً .. فيموت أنكيدو ، و يقضي جلجاميش بقيّة حياته سعياً وراء فك شفرة الموت .. فيسافر إلى أقاصي الأرض و

يتحوّل إلى حكيم أوروک .. و سيّد العالم السفليّ ، حيث حساب الناس بعد وفاتهم ..

قيل عند الشّوام (يضرّب الحبّ شو بيزل) ، و أقول (يضرّب الحبّ شو بيربي) ..

لكنّ حوراء في هذا الفصل الذي أسمته (من شدّ خاصرة الحنين) هرّبت شيخها الحكيم إلى حلبة الشبّان .. في محاولة منها للدّمج بين الطورين ، و هو أمرٌ يحسب لها من جهة أنها محاولة جريئة ، فلّ من نجح في رهانها الكبير .. إذ لم تذكر التجارب سوى شعراء العشق الإلهي كالبلخيّ الرّومي و حافظ الشيرازي .. و لم نرَ تجارب أخرى ناجحة في دمج العقل بالقلب ..

ثمّ تداركت سريعاً حجم الرّهان الكبير ليستقرّ قلقها على طور الحماسة الشّابة خالصاً :

عوّدتني كلّما اشتاقُ لا أجذك

غيب ..

إنني لا أكاد اليوم أفتقدك !

فكم فرشتُ لك الأضلاع خارطةً

نقشتُها من دمٍ ما حدّه جسدك

و كم أرحتُ على زنديٍّ أدمعك الحرّ

لتجذبني نحو العناق يدك

يوماً تعود مع الذكرى و تسألني

: عودي

: و حقّ الحب لا أعِدُّك !

و رغم الرهان الكبير الذي خاضته في هذه التجربة ، جدير بالذكّر أنها التفتت إلى كون الحبّ نافذة الخلاص من همّ المادة بأشرس تشكّلاتها من زمان و مكان و أحداث :

جليدٌ لا يذوب بحرّ ناري

كأنّ الرّيح

لم تفهم مداري

أوزَّع في مهبِّ الرِّيح صوتي

فيخنقني

صدائي مع المسار ..

*

3- فطرة الطفولة .

الحكمة لا تُعلِّم ، هكذا يقول أفلاطون في محاورته (بروتاغوراس) ، و إنما تُفعِّل بالتربية ، ويُصدِّق الشَّهاب السهرورديّ رسالة في الطفولة يحكي فيها تجربته مع شيخه أيّام كان طفلاً ، و هي التَّجربة التي حملها قلبه عابراً بها تقادم السنين و الأيَّام دون أن تتآكل بأسيد الزمن ..

فلماذا الطفولة ؟

لأنَّها مطبخ الإنسان ، حيث تتشكَّل التجارب الأولى بعجين الفطرة ، فهناك ، في مطبخ الذات الأصيلة ، يجد الإنسان نفسه محاطاً بكونٍ صغيرٍ قوامه الأب ، الأم ، الإخوة ، فالعائلة الكبيرة فأصدقاء الحيّ و المدرسة .. و كافّة متعلّقات تلك البيئة ..

كلّها تشكِّل الطبقة الأولى في أرض النفس ، و هي ما سيحدد على الأغلب صفات المرء ، و تحكم عليه بالسَّخاء أو البُخل ، الشجاعة أو الجُبْن ، المحبّة أو الكراهية .. إلخ ..

يتقادم الزَّمَنُ بصاحبه وسط تكالب الظروف و تغيُّر الأحوال ، لتستحيل تلك الأرض الأولى نقطةً بيضاء صغيرة على سبّورة أيّامه السوداء .. يدور في الفلك المظلم ، و عينه على النقطة ..

الفطرة هي أرض الحكمة الأولى ، الأب هو الشَّيخ الأوَّل .. و الأمّ هي العاطفة التي لا تنضب ..

يقوم هذا الطَّور على ثلاثيّة خاصة ، تتموضع علاقة عناصرها وفق ثلاثة خطوط :

الأبوّة ، الأمومة ، و البنوّة ..

خللٌ واحدٌ في أحد الأضلاع يكفي ليدخلَ أوديب مخدع الأب بخنجر.. أو تضع أليكترا الحنظل في قهوة الأم

!

أمّا حوراء فتجعل من النّخلة الاحسائيّة .. أيقونة الأمّ ..
تحكي الأسطورة بأنّ رجلاً عقيماً كان جلّ ما يتمنّاه أن لا ينقطع نسله ، وجدّ نسراً عالِقا في
البريّة في أحد جحور الأفاعي فخلّصه .. و كردّ جميلٍ حمله النسر على ظهره إلى الأعالي حيث إنانا ،
ربّة الجمال و الخصوبة ، و هناك أعطته إنانا بذرة نخلة .. كعلاجٍ لعقمه ..

ليس قبل الفطرة سوى الخصوبة ، و ما بعدها هو الجمال ، و الجمال داعية الحبّ ، و الحب باب الحكمة
.. منظومة مختزلة في الأب و الأمّ و الأسرة ..

ألهذا كانت الأسرة .. المستهدَف الأكبر لمدافع الرأسمالية ؟!

أدرك مُنذاع الحضارة الحديثة هذا تمام الإدراك ، فبتنا أجساداً بلا رؤوس ، تتخبّط في العماء
المُطلق و تحسب كلّ جدارٍ باباً .. أو أيادي بلا خطوط !

للنّخلة (أبوّةٌ و أمومةٌ) عدة أوجه :

فهي الطّبيعة ، الكون ، الرّوح ، الخصوبة و الحياة الجنسية ..
فأمّا الطّبيعة فتم غزوها بجيوش الاسمنت ، و الكون لم نعدّ نراه ، حدّسنا بتنا نبحت عن مساحة برّيةٍ
بعيدة عن إنارات الشّوارع ننتبذ منها زاوية الرّؤيا .. و الرّوح أُنكرت أمام الذّكاء التّقني ..
و الخصوبة باتت رهن الرّاتب الشهري ..

ألهذا كلّهُ قررت حوراء تسمية هذا الفصل (نبوءة يد) ، و اختارت لغة الفطرة المحضة ؟

إنّ الأرضَ تشبه يا ابنتي رَحمي

و نحن براعمُ الزّيتون نكبر بانتماء الرّوح للكون ..